المصـــــدر : عكاظ
التـــاريخ : 03-02-2006
الصفحـات : 27
العـــدد : 14405
المسلسل : 145

خادم الحرمين الشريفين زار نصف سكان العالم طلباً للسلام والاستقرار الدولي

جولة المليك.. الاتجاه شرقاً في الوقت المناسب

خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز خلال جولته الاسيوية الناجحة التي شملت الصين والهند وماليزيا وباكستان

المصـــــدر : عكاظ
التـــاريخ : 03-02-2006 العـــدد : 14405
الصفحـات : 27 المسلسل : 145

كتب: د. طلال صالح بنان

قام خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز بجولة استمرت قرابة الأسبوعين زار خلالها كلاً من الصين والهند وماليزيا وباكستان. هذه الجولة الآسيوية التي أجمع المراقبون على أنها تاريخية. هي تاريخية، بالفعل، ليس فقط في سياق سوابقها التاريخية، كأن تقول مثلاً: أنها أول زيارة لملك سعودي للصين.. وهي أول زيارة لملك سعودي للهند، منذ أكثر من نصف قرن.. أو أنها أول زيارة لملك سعودي لماليزيا، لأكثر من ٣٦ عاماً... الخ.

المقصود بمفهوم «التاريخية»، هذا التقصي الزمني لسير علاقات المملكة بهذه الدول... وهو على أي حال أمر له علاقة بالماضي، أكثر منه له علاقة بالمفهوم التقدمي الاستشرافي لحركة التاريخ. المهم، في هذه الجولة، هو: ملاحظة أن هذه الجولة التي قام بها خادم الحرمين الشريفين، للشرق، أنها تأتي في إطار حركة التاريخ، في ما له علاقة بالمستقبل، أكثر مما كان له أهمية في الماضي. بمعنى أن جولة خادم الحرمين الآسيوية، لهذه الدول المهمة على نطاق حركة وشكل النظام الدولي الحاضر، لن تذهب في التاريخ كسجل زمني يرصد بالدقيقة والساعة حدوثها، ولكنها ستذهب، في التاريخ على أنها جولة، أتت في وقتها، من حيث مواكبتها لحركة التاريخ.. وأنها مثال الأحداث التاريخية الحاسمة والدقيقة، في التاريخ، التي كان لها أثر على ما بعدها من أحداث، بوصفها احدى قفزات التاريخ الخالدة.

لذا، فإننا في محاولة رصد تاريخية هذه الجولة التي قام بها خادم الحرمين الشريفين، لتتجه المملكة شرقاً، ليس بالمعنى الأيدلوجي الذي كان سائداً في نظام الحرب الباردة، ولكن بالمعنى التاريخي، في ماله له علاقة بمسيرة التاريخ الخيرة، طلباً للسلام.. وبالمعنى الإنساني العام، حيث أن هذه الجولة زار فيها الملك عبد الله ما يقارب من نصف سكان العالم.. وبالمعنى الاستراتيجي الماثل في حقيقة أن ثلاثاً من هذه الدول الأربع، تمتلك الرادع النووي، اثنان منهم خارج منهم خارج عضوية نادي الدول التقليدية.. وكذلك بالمعنى الاقتصادي، من أن هذه الدول، جميعها، استطاعت أن تحتل مكانة اقتصادية مرموقة في حركة التجارة العالمية، وهي أولى مقدمات بروز نزعة المنافسة الكونية لدى بعض هذه الدول، في مواجهة احتكار الغرب للهيمنة الكونية، على العالم، طوال فترة الأنظمة الكونية الحديثة، منذ نهاية القرن الخامس عشر، إلى الآن.

عصر نهاية الأيدلوجيات

من أهم ملامح النظام الدولي الجديد، الإيجابية، تخلص أعضاء النظام الدولي، في سياستهم الخارجية من متغير الأيدلوجية. هناك قطب واحد مهيمن، يجد صعوبة كبيرة في تسويق قيمه الأيدلوجية على مستوى العالم، في الوقت الذي أضحت فيه قيم الليبرالية، سواء في التجارة أو السياسة، لها ملامح إنسانية. ليس بالضرورة تمثل سيطرة هذه القطب الأوحد، على حركة وقيم النظام الدولي. على سبيل المثال، الولايات المتحدة، لا تستطيع أن تعترض على محاولة المملكة توثيق علاقتها بالصين، لأنها لا تستطيع أن تفعل ذلك، وتجادل بمبدأ حرية التجارة الدولية، في نفس الوقت. ثم أنها لا تستطيع أن تعترض على توثيق علاقة المملكة الاستراتيجية مع قوى دولية صاعدة، مثل الهند والصين، لأن أياً منهما لم يدع بعد أنه في مقام المنافس الدولي، لما تدعيه الولايات المتحدة من هيمنة كونية.

ثم حتى على مستوى العلاقات الإقليمية، في منطقة جنوب غرب آسيا، لا تستطيع باكستان أن تعتض من توجه المملكة لبناء علاقات وثيقة مع الهند، كما كان هذا الأمر في الماضي يمثل حساسية خاصة في حركة السياسة الخارجية السعودية، لأن الأجواء في منطقة جنوب غرب آسيا، أضحت لا تحكمها علاقات ردع غير تقليدية متبادلة، بين الهند وباكستان، ولكن تحكمها أجواء لتخفيف حدة التوتر بين الجارتين اللدودتين.

المصـــــدر : عكاظ
التـــاريخ : 03-02-2006 العـــدد : 14405
الصفحـات : 27 المسلسل : 145

● القيادة استشرفت حركة التاريخ.. والجولة مثال لأحداث القفزات الخالدة

● قيم الليبرالية في التجارة والسياسة لها ملامح انسانية لا تتصل بسيطرة القطب الواحد

لتولد قناعة استراتيجية بينهما وفي المنطقة، بأنه لا يمكن حل خلافاتها خارج إطار الحلول السلمية، التي يمكن للمملكة أن يكون لها دور إيجابي، في هذا الصدد.

حتى على المستوى الثنائي بين الهند وباكستان لم يعد الخلاف بينهما تسيطر عليه الاعتبارات الأيدلوجية، كما كان الأمر في الماضي. في الهند اليوم من المسلمين ما يقارب أو يزيد عن ذلك الذي في باكستان... كما أن تجربة المتغير الأيدلوجي في انقسام شبه القارة الهندية، لم تعد بتلك الحساسية والزخم، الذي كان عليه الحال عند قيام دولتي الهند وباكستان، عقب الاستقلال. الشعور القومي، بحس الدولة، طغى مع الوقت على الحس الأيدلوجي، عند شعبي البلدين. اليوم، في الهند، على سبيل المثال: ينظر المسلمون إلى الخلاف بين الهند وباكستان من منظور سياسي قومي، وليس من منظور أيدلوجي صارم. في النهاية: معيار المواطنة، وليس معيار الأيدلوجية، هو الذي يتحكم في مشاعر وضمائر المسلمين الهنود والباكستانيين، على حد سواء.

إذن: الأيدلوجية، بمعناها الصارم الذي كان يتحكم في علاقات الدول، بعضها البعض، لم يعد له وجود في النظام الدولي الحالي. الدول، وإن احتفظت بثوابتها الأيدلوجية، كأحد مصادر شرعية أنظمتها السياسية، إلا أنها لم تعد ترعى اهتماماً لعامل الأيدلوجية، في حركة سياستها الخارجية. العلاقات بين الدول، في هذا الوقت، تحددها مصالحها الاقتصادية والسياسية والاستراتيجية، لا عقائدها الأيدلوجية، بصورة لم تعهدها الأنظمة الدولية الحديثة المتعاقبة.

الاتجاه شرقاً عن طريق الغرب

المملكة، عندما أخذت تتجه شرقاً، بجولة الملك عبد الله، الآسيوية هذه، كانت كمن يختار اللحظة التاريخية الحاسمة، لتعظيم مصالحها الاقتصادية والاستراتيجية، في نظام دولي، ظن الكثيرون أنه لا يكفل المرونة الكافية لأعضائه بأن يحددوا خياراتهم، وفقاً لمصالحهم ومقتضيات أمنهم، خارج إرادة القطب الدولي الأعظم الوحيد. بالعكس، المملكة عندما اتجهت شرقاً بهذه الزيارة التي قام بها الملك عبد الله، وعت تماماً، أهم خصائص النظام الدولي الحالي: المرونة الكبيرة التي يتيحها هذا النظام الآحادي القطبية، للدول، في تحسس مصالحها الحقيقية، مع هذا القطب، وكذا أي طرف دولي يحمل مواصفات الترشيح للمنافسة على الهيمنة الكونية، مستقبلاً، دون إثارة حفيظة هذا القطب الدولي الأوحد.

توجه المملكة، شرقاً، لم يأت من فراغ، كما أنه، لم يأت فجأة وبدون مقدمات. بالعكس المملكة، وحتى لا يبدو تحركها شرقاً، مفاجأة للجميع، وخاصة الولايات المتحدة، عملت في الفترة السابقة على توثيق علاقاتها مع الولايات المتحدة، ليس بوصفها القطب الأوحد في النظام الدولي، ولكن لأن اعتبارات مصالح المملكة الوطنية ومقتضيات أمنها القومي، كانت في الماضي، كما هي الآن، وستظل في مستقبل طويل قادم، تنطلق من الإبقاء على علاقات وطيدة وممتدة وعميقة مع الولايات المتحدة، ولكن دون أن يعني ذلك، احتكاراً أمريكياً لحركة السياسة الخارجية السعودية.

وربما مهدت مؤسسات السياسة الخارجية السعودية، لتوجه المملكة شرقاً، بطمأنة الولايات المتحدة والغرب، بصورة خاصة، على أن ذلك لن يكون، بأي حال من الأحول على حساب علاقات المملكة التاريخية والخاصة، مع الغرب والولايات المتحدة، على وجه الخصوص. زيارة خادم الحرمين الشريفين لأوربا والولايات المتحدة، في الربيع الماضي، كان الهدف منها، ليس فقط تصفية حساب كل الترسبات السلبية التي تركها حادث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ الإرهابي... ولكن، أيضاً، إفهام الغرب، بكل صراحة، أن المملكة تعي تماماً التحولات التي تطرأ على حركة السياسة الدولية والتجارة العالمية، في عصر نهاية الأيدلوجيات.. وأنه لم يعد هناك مجال لأن يتذرع أحد بحساسية الأيدلوجية، في حركة السياسة الدولية.. ويعي أكثر أن المملكة حريصة على علاقتها الخارجية معه، بقدر حرصها على الاستفادة من موارد النظام الدولي الجديد، في مجالات السياسة

المصـــــدر : عكاظ
التـــاريخ : 03-02-2006 العـــدد : 14405
الصفحـات : 27 المسلسل : 145

والاستراتيجية والاقتصاد، لتعظيم مصالح المملكة العليا وتعزيز متطلبات أمنها الوطني والقومي.

إذن، هناك ربط استراتيجي بين زيارة خادم الحرمين الشريفين لأوربا والولايات المتحدة، في الربيع الماضي لأوربا والولايات المتحدة، وجولته الآسيوية الأخيرة، التي انتهت أمس.

الاقتراب من نصف العالم

الدول الأربع التي زارها الملك عبد الله في جولته الآسيوية الأخيرة يقطنها نصف العالم، دولتان فقط (الهند والصين) يقطنها ما يقرب من ثلاثة مليارات نسمة...!؟ ثروة بشرية هائلة، كانت إلى وقت قريب، بعيدة عن اهتمامات المملكة، لحساسيات ربما فرضتها اعتبارات الأيدلوجية، وليس منطق السياسة وعقلانيتها. نحن عندما نشير إليها على أنها ثروة بشرية، نعي تماماً ان الصين تقترب مثلاً لأن تتبوأ مكانة ثاني أكبر اقتصاد في العالم.

الهند، في غضون أقل من عشر سنوات، يمكن أن تنافس وتتجاوز اليابان، على هذه المكانة المتميزة في حركة التجارة العالمية. الغرب، باختصار: لم يعد يُطبِقُ على النظام الدولي، بصورة محكمة، بعد أن بدأ الشرق يسحب أهم أدوات السيطرة الاستراتيجية على العالم (حركة التجارة العالمية)، من قبضة الغرب.

ونعي ايضاً انه بين كل من الصين والهند منافسة شديدة على إثبات حقيقة أن العنصر البشري، هو أهم أدوات الإنتاج، في عصر ظن الغرب، والعالم أيضاً، أن تقدم الغرب التكنولوجي. سوف يجعل العامل البشري، من مخلفات عصر ما قبل التكنولوجيا. الصين والهند، وجدا ميزتهما التنافسية في العنصر البشري، وعملا، على تطويع التكنولوجيا، لزيادة اعتماد حركة الإنتاج والتجارة الدولية وحركة رؤوس الأموال، على العنصر البشري، بصورة أساسية. الصين لم تعد معجزتها الحضارية والإنسانية والاقتصادية، في قدرتها على إطعام أكثر من مليار نسمة، كما كان الأمر في العهد الشيوعي.. الهند لم تعدد مهددة بالمجاعة، كما كان الأمر، من ثلاثة عقود مضت. البضائع الصينية، في الوقت الحاضر، غزت العالم، بأسعار منافسة وجودة عالية..

الهند، من جانبها جندت جيوشا جرارة، لمواكبة التطور في صناعة المعلومات وتكنولوجيا الحاسبات الإلكترونية، جذبت رؤوس أموال أجنبية وفيرة من مجتمعات اقتصادية متقدمة في الغرب، للاستفادة من الميزة التنافسية للعمالة الهندية الماهرة في أنظمة المعلومات وتكنولوجيا إدارة رؤوس الأموال المتقدمة، دون ما حاجة لاستقدام هذه العمالة الهندية الماهرة، في مجتمعات هذه الدول الصناعية الكبرى، مما وفر على هذه الشركات العالمية الكبرى التي فتحت فروعاً لخطوطها الإنتاجية في الهند.. واستفادت من الخبرة الهندية في إدارة وتدوير رؤوس أموالها إلكترونياً، عن بعد، تكلفة العمالة الباهظة في مجتمعاتها، وكذلك الضرائب الكبيرة، على دخولها، في مواطنها الأصلية.

بالإضافة إلى إمكانيات هذا السوق الواعد الكبير، في هذه الدول الآسيوية التي زارها خادم الحرمين الشريفين، لمنتجات المملكة من الصناعة النفطية التحويلية المتقدمة، التي تتمتع من خلالها المملكة بميزة تنافسية كبيرة. توفر أسواق هذه الدول فرص واعدة كبيرة لرؤوس الأموال السعودية للاستثمار. تنافس تلك التي اعتاد رأس المال السعودي العمل فيها، في الغرب... كذلك بإمكان هذه الدول أن توفر جزءا كبيرا من واردات المملكة من السلع المصنعة، واحتياجاتها من الخبرات الفنية الماهرة، بتكلفة ونوعية تنافس ما اعتدنا عليه من خبرات أجنبية أوربية وأمريكية، مكلفة، وكثيراً ما تتحكم فيها الاعتبارات السياسية غير المواتية.

المصـــــدر : عكاظ
التـــاريخ : 03-02-2006 العـــدد : 14405
الصفحـات : 27 المسلسل : 145

ولكن علينا، في هذا السياق أن نلاحظ: أن هناك قاسما مشتركا بين حركة تجارتنا التقليدية، مع الغرب.. وتلك النامية مع الشرق. كلٌ من الصين والهند، يحتاجان إلى النفط، بصورة متزايدة، تنافس حاجة الأسواق التقليدية للنفط، في الغرب الصناعي. الصين تستورد أكثر من سبعة ملايين برميل نفط، يومياً، حيث تشكل وارداتها النفطية ٦٠٪ من احتياجاتها من النفط، لذا تعتبر الصين، أكبر مستورد للنفط في العالم بعد الولايات المتحدة... ولهذا كانت الصين والهند، وراء هذه الزيادة المطردة في الطلب العالمي للنفط، الذي تسبب في زيادة أسعار النفط، غير المسبوقة.

الصين، أيضاً، متوقعٌ لها، خلال عشر سنوات أن تتفوق على الولايات المتحدة في الضغط على الطلب العالمي للنفط، لترتفع وارداتها من النفط، إلى ٢٠ مليون برميل يومياً، أي ما يوازي ربع الطلب العالمي الحالي على النفط. الهند، أكثر تعطشاً للنفط، من الصين، لندرة مصادرها الطبيعية منه. ولكن الهند ستكون قادرة، بقوة اقتصادها على دفع فاتورة النفط المرتفعة، بعد أن كانت في السبعينات والثمانينات، من القرن الماضي، على قائمة الدول الفقيرة التي تتلقى مساعدات من منظمة الأوبك، من أجل تغطية نسبة من فاتورة النفط المرتفعة..!؟

الآن، لا تتجاوز واردات الهند والصين من النفط السعودي المليون برميل يومياً، وهو ما يمثل ما يوازي ربع واردات الهند من النفط، وما يزيد قليلاً عن ١٦٪ من واردات الصين من النفط. أخذاً في عين الاعتبار الزيادة المطردة لحاجة كل من الصين والهند للنفط، وفي ظل إمكانات إنتاجية متناقصة للنفط حول العالم، عدا إمكانات المملكة الواعدة في الإنتاج، نستطيع أن نتلمس مدى المكانة الاستراتيجية الهامة التي ستتبوأها المملكة، في الاقتصاد العالمي، عن طريق قدرتها على مد أهم مستهلكيْن للنفط في العالم (الهند والصين)، بالإضافة لالتزامات المملكة التقليدية للدول المستهلكة التقليدية، كمنتج آمن ومسئول وموثوق فيه، لتلبية حاجة الاقتصاد العالمي من النفط الخام، بامدادات آمنة وأسعار مناسبة، بما لا يتوفر لأي منتج آخر للنفط، في العالم.

ولا شك أن الاتفاقات الاقتصادية، التي أبرمت بين المملكة، والدول التي شملتها جولة خادم الحرمين الشريفين الآسيوية، تعكس هذه الخاصية غير التقليدية للنظام الدولي في بعده الاقتصادي، بتغير علاقات الإنتاج وأدواته، في عصر العولمة، حيث يعتمد التبادل التجاري، إلى حد كبير، على الموازنة، بين الشركاء التجاريين الدوليين، بمعيار الميزة التنافسية، لكل منهم، في سوق دولي واسع ومعقد، إلا نه يزدحم في قرية كونية صغيرة.

الأبعاد الاستراتيجية

لجولة الملك عبد الله الآسيوية أبعاد استراتيجية، تصب في خدمة مصالحنا الوطنية العليا وأمننا الوطني، ببعده القومي (العربي والإسلامي) الممتد. كما سبق وذكرنا هناك ثلاث دول من بين الدول الأربع، التي زارها خادم الحرمين الشريفين، تمتلك الرادع النووي بأبعاده الاستراتيجية غير التقليدية. دولتان من الدول الاربع (الهند وباكستان) من خارج النادي النووي التقليدي للدول الخمس الكبرى الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن، الذي كان استقرار العالم، في نظام الحرب الباردة يعتمد على آلية توازن الرعب النووي بينهم. بفرض، كل من الهند وباكستان، عضويتهما على النادي الدولي النووي، تدخل منطقة جنوب غرب آسيا في حركية التوازن الاستراتيجي العالمي، بصورة غير مسبوقة. وبما أن المملكة، تقع في الركن الأقصى من منطقة جنوب غرب آسيا، لابد أن هذه التحولات الاستراتيجية، غير التقليدية لها أبعادها على

المصـــــدر : عكاظ
التـــاريخ : 03-02-2006 العـــدد : 14405
الصفحـات : 27 المسلسل : 145

مقتضيات أمن المملكة، وكذا استقرار منطقة الشرق الأوسط، برمتها.

سوابق استراتيجية وسياسية، أحدثها واقع امتلاك الهند وباكستان للرادع النووي، يمكن أن تؤثر بصورة سلبية على استراتيجية حظر انتشار الأسلحة النووية، في العالم. إيران على سبيل المثال: يُشك أنها تعمل على امتلاك رادعها النووي الخاص بها، هذا بالإضافة، إلى تأكيد امتلاك إسرائيل للرادع النووي.

ولكن هناك أبعاد استراتيجية إيجابية يمكن أن يكون للمملكة دور فيها لتخفيف حدة التوتر في منطقة جنوب غرب آسيا، بل وفي منطقة الشرق الأوسط، أيضاً. المملكة، كما ظهر من جولة خادم الحرمين الشريفين الآسيوية، بتطوير علاقتها مع الهند، والتأكيد على العلاقة التاريخية مع باكستان، مرشحة أكثر من أي طرف دولي وإقليمي، على القيام بدور إيجابي في تخفيف حدة التوتر في منطقة جنوب غرب آسيا.. وخفض احتمالات المواجهة، سواء التقليدية أو غير التقليدية بين الهند وباكستان، إلى أدنى مستوىً ممكن.

المملكة، سوف يمتد تعاملها في قضايا الأمن الإستراتيجية، مع كل من الهند وباكستان، لمحاولة احتواء أزمة العلاقات بين الغرب وإيران، حول ملف الأخيرة النووي... وكذا احتمال إحياء المخاوف من إمكانات الردع التقليدية لدى إسرائيل لخارج منطقة الشرق الأوسط، بضم منطقة جنوب غرب آسيا إليها.

إذا ما نجحت مساعي المملكة في حل مشكلة الخلاف التاريخي بين الهند وباكستان، على إقليم كشمير، فإن ذلك من شأنه أن يخفف، إلى أدنى مدى ممكن، احتمالات المواجهة بين البلدين... ويثير اهتمامهما، كطرفين نوويين بإمكانات إسرائيل النووية، عن طريق رئيسة أمن منطقة الشرق الأوسط، بأمن منطقة جنوب غرب آسيا، ليصبح التهديد الأمني، لكل من الهند والباكستان، لا يأتي من احتمالات المواجهة النووي بينهما، ولكن من وجود طرف إقليمي (إسرائيل) يسبب قلقاً أمنياً لهما، يتوجب التعامل معه بخطورة أبعاده الاستراتيجية... فترتفع احتمالات الاستقرار لمنطقتي الشرق الأوسط وجنوب غرب آسيا، ليس بوجود أطراف نووية جديدة، ولكن بإحداث نوع من التوازن في الرعب النووي، بين محوريين أساسيين في المنطقة الهند وباكستان، من ناحية.. وإسرائيل، من ناحية أخرى، بهدف جعل منطقة الشرق الأوسط، خالية من السلاح النووي.. أو خفض احتمالات عدم الاستقرار الذي يمثلها غياب التوازن الاستراتيجي، في المنطقة، إلى أدنى مستوى ممكن.

الوقت المناسب

في حقيقة الأمر، المملكة لم تتأخر في الاتجاه شرقاً، كما يدعي بعض المراقبين. بالعكس، المملكة اتجهت شرقاً، في الوقت المناسب، بعد تهيئة الظروف السياسية والاستراتيجية والاقتصادية، في إطار أهداف سياستنا الخارجية، لتعظيم مصالحنا العليا، وكذا مراعاة مقتضيات أمننا القومي. كما يظهر هناك مكاسب سياسية واقتصادية واستراتيجية تحققت من هذه الجولة، كانت تنتظر الساعة الحاسمة لاقتناصها، وكان.

تاريخية هذه الزيارة، إذن، لا تنحصر في مداها الزمني الذي تطورت فيه، ولكن في بعدها التاريخي الشامل، بأبعاده الإنسانية واعتباراته الجغرافية ومقتضيات حركة النظام الدولي الحالي وتوجهاته، وأهم من كل ذلك، صلة كل ذلك بغاية مسيرة التاريخ النبيلة (السلام).

لقد استشرفت القيادة السعودية حركة التاريخ وهي تطوى أمامها كاشفة عن أسرار مسيرتها السرمدية الخالدة.. وكان أن تهيأت الفرصة لمواكبة حركة التاريخ، من أجل تعظيم مصالحنا العليا ودعم متطلبات أمننا الوطني، بامتداده القومي، في العالمين العربي والإسلامي، وكان الحس السعودي الفطري جاهزاً لاغتنام الفرصة، ليعم السلام مجتمعنا والمنطقة والعالم.

وكان الوقت أكثر من مناسب لجولة الملك عبدالله التاريخية الآسيوية، التي انتهت يوم أمس.